غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[١] - ﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[٢].

أجل و﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾[٣] ثالوث من التخاصم بسالوس الإضلال والضلال والإدغال، فقد يخاصم المضلّلون مضلّليهم وعكساً، كما يخاصم كلٌّ منهم قرينه في الضلال والتضليل، واللعنة الأممية هي ضابطة اللعنة الثابتة «أمة» بمن فيها من المضلِّلين والمضلَّلين والقُرناء في كلٍّ منهما، فكل لاحقة تلعن أختها السابقة عليها، ولأنها لحقتها في ضلالها، إذ كانت تقلدها وتتبع آثارها، ولعنت أختها اللاحقة بها، سواء أكانت أختها مضلّلة لها أم مضلّلة بها، حيث الأخوة فى الكفر لا تعرف دركة دون أخرى ولا زمناً دون آخر.

ثم «أمة» هنا هي أمة الموت، وقد تعنيها ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ ولكنها أمة الضلالة، وتقابل أمة الهدى.

ولماذا ﴿ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا﴾ دون «دخلوا - أو حضروا»؟ حيث القصد إلى تداركهم فيها بحساب واستحقاق، وإدراكهم بعضهم بعضاً ظاهراً وباطناً، وعندئذ:

﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ حيث اللاحقة هي تابعة السابقة، أم - كأوضح - أخراهم في الضلالة التابعة لأولاهم فيها وهم أئمة الجور[٤]، فالفريقان - إذاً - هما المتعايشان إن في زمن واحد أم عديد، فهما على أية حال المضلَّلون باتِّباعهم للمضلّلين، سواء أكان في تعايش زمني، أم في تقليد أخراهم لأولاهم دون تعايش حيث يضلّلون بآثارهم.

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٧.
(٣) سورة ص، الآية: ٦٤.
(٤) تفسير البرهان ٢: ١٤ - الطبرسي قال الصادق عليه السلام في الآية يعني أئمة الجور.

وبصيغة أخرى قد تعني «أخراهم» وجاه «أولاهم» كل أخرى لكلٍّ أولى، في سلسلة متواصلة بحقول الإضلال والضلال، أم «أخراهم» هم المضلَّلون و«أولاهم» المضلِّلون فإنهم الأولى في حقل الضلال وأولئك هم الأخرى، مع كون كلٍّ من الأخرى هي أيضاً أولى لمن يضلِّله.

إذاً فالقصد من ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ هو قيلة كلّ أمة مضلَّلة لكل أمة مضلِّلة، والأمة هنا كما بينا هي أمة الموت في الكفار الذين هم أهل النار.

ذلك، ولأن الضلال منه حاضر في تعايش الضُّلَّال والمضلِّلين، ومنه غير حاضر بمضلِّليه لمكان ضلالهم الغابر، العابر مر الزمن، فقد يشمل الإضلالُ كلّهما، فإن «من سن سنَّة سيئَة كان عليه وزر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أوزارهم» مهما كان الإضلال الحي أقوى وأغوى من الإضلال الميت.

إذاً فـ ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ تشمل كلَّ مضلَّل و﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ تشمل كلّ مضلِّل حياً وميتاً ما دام في ضلاله تأثير الإضلال بأي أثر باق باغ في حقل الضلال، إذاً فليست ﴿أُخْرَىٰهُمْ﴾ هي المتأخرة موتاً إذ قد يكون هي المتقدمة إضلالاً.

﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ لضلالهم أنفسهم وإضلالهم إياناً ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ فإنكم كما هم ضللتم وأضللتم، فإن في الدخول إلى ربَع الضلالة إضلالا للبسطاء، ثم ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ ضِعفكم عن ضِعفهم، فإن لكلٍّ عذاباً قدر سعيه في الضلال والإضلال.

ذلك، فلا تعني ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ تماثل الضعفين عِدة وعُدّة، بل هو التماثل لبُعْدي الضلالة مهما اختلفت العِدة والعُدة، فقد يقوَّى ضعف الأولين ويضعّفَ ضعف الآخرين، حسب القوة والضعف في الضلالة والإضلال، وكما أن كلًّا من الفريقين دركات في كلا الضلال والإضلال،

ثم والضعف في العَدد كما العُدد لا ينحصر في اثنين حيث قد يتجاوزهما إلى أضعاف حسب أضعاف الاستحقاقات[١].

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

وترى الفضل المنفي في بُعد العذاب هو الفضل في عِدَّة العذاب وعُدَّته، أن الفريقين يتساويان فيهما؟ وهذا غير وارد في كلِّ فريق بين أفراده فضلاً عن الفريقين مع بعضهما البعض! فقد يعني فضل الضِعف في العَدد، لا والعُدَد.

وعلى أية حال ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ فعلى قدر مكاسب السوء نُجازى وتُجازون.

وقد يعني ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ مدى الضّعف مضلِّلين ومضلَّلين، فلذلك ليس ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ إلّا جهلاً بمدى «لكلّ ضعف» وهذا الجهل عذاب فوق العذاب.

ثم وقد تكون ﴿فَذُوقُوا. . .﴾ من كلام الله دون كلام أولاهم، كضابطة عامة تعم أولاهم وأخراهم أن ذوق العذاب على أية حال ليس إلّا بمكاسب السوء قدرها، من مضلِّل كان أم مضلَّل، على قدر ضلاله وإضلاله أم تقبله للضلال ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

إذاً فهي نقدٌ على ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أم هو كلامهم

(١) قال الأزهري «الضعف» في كلام العرب المثل إلى ما زاد وليس بمقصور على المثلين وجائز في كلام العرب أن تقول: هذا ضعفه أي مثلاه وثلاثة أمثاله، لأن الضعف في الأصل زيادة غير محصورة كما ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ [سبإ: ٣٧] إذ ليست تعني ضعف المستحق، بل هو كثرة الثواب حسب كثرة الطاعات وأقل الضعف لهم عشرة أضعاف فـ ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وكذلك الأمر حيث أجابوا أنفسهم بأنفسهم. وحصيلة الضعف هنا وهناك أن لكلٍّ كثرة العذاب عَدداً وعُدداً حسب عَديد العصيان وعُدده، وليس يعني ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ إلَّا فضلاً من الله يختص بالمضلّلين لأنهم أتباع، فهو العدل المحكّم بين الفريقين، وقد يربو المضلَّل على المضلِّل في ضِعف العذاب قدر ضِعف العصيان، وإنما الفضل يختص بكتلة الإيمان، أن يزدادوا ثواباً عمّا يستحقون، وأما الكفار فلا زيادة في عذابهم ولا نقصان عن المستحق بقسطاس مستقيم.

ولأن «الضعف» لا يختص بالمثلين كما ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾[1] وأقل الضعف هو عشرة لمكان مَنْ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وهذا لأدنى المؤمنين، وهنا جَزاءُ الضِّعْفِ لأفاضلهم.

إذاً فمطالبة ضعف العذاب للمضلّلين - فقط - لأنهم أضلوا، خاوية عن العدل المُرام يوم الحساب، والجواب كلمة واحدة ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ من العذاب وهو كثرته قدر المستحق، فقد يكون ضعف المضلِّل أضعف من ضعف المضلّل، وآخر يعاكسه، وضعف كلّ ليس إلَّا بميزان العدل، ثم لا ضِعف كما يشتهون ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ أن لكلٍّ ضعفاً كما ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ قدر الضِّعف لكلٍّ حيث الأعمال معروفة عند الله، مجهولة عند من سواه.

فهنا لِكُلٍّ ضِعْفٌ تعني عذاباً لضلاله وعذاباً لإضلاله، وكلُّ ضعف إنما هو قدر المستحق عَدداً وعُدداً ولا يظلمون فتيلاً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٧.

هنا ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ قد تعني أبواب سماء الرحمة الرحيمية دنيوية وأخروية وبينهما ومن الأولى ألّا تفتح لهم أبواباً لتصعد أعمالهم وأدعيتهم إليها، حيث ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[1] كما لا تفتح عليهم بركاتها: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[2]، ومن الأخرى عدم صعودهم إلى الجنة المأوى عند سدرة المنتهى، كما أن مما بينهما عدم صعود أرواحهم لدى الموت إلى سماء الرحمة[3].

ذلك، وأما أقفال السماوات فالشرك بالله، ومفاتيحها قول ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، إذاً فأبواب سماء الرحمة مادية ومعنوية لا تفتح لهم في أية نشأة من النشآت الثلاث.

إذاً فللسماء أبواب: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾[4]، ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ

(١) سورة فاطر، الآية: ١٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.
(٣) الدر المنثور ٣: ٨٣ - أخرج أحمد والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل صالحاً قال: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان وربّ راض غير غضبان فلا يزال يقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء السابعة فإذا كان الرجل السوء قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقال فلان فيقال لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ارجعي ذميمة فإنها لا تفتح لك أبواب السماء فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر.
وفي تفسير العياشي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قبض روح الكافر: فإذا أوتي بروحه إلى السماء الدنيا أغلقت منه أبواب السماء وذلك قوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ٤٠] يقول الله: رددها عليه فمنها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٣٥.

يَعْرُجُونَ﴾[١] ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾[٢].

و﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ﴾ تمثيل بما يستحيل حيث يحيل دخولهم الجنة، فهل هو الجمل الإبل؟ فضلاً عن جمل أصحاب الجمل[٣] ولا صلة لذلك الجمل بسم الخياط، ولا أن أصحاب الجمل من ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ لا سيما وهم بمثل طلحة والزبير كانوا من أصحاب رسول الله ﷺ الصالحين عند نزول الآية، فكيف تنزل آية كفرهم الذي يحيل دخولهم الجنة؟!.

وهنا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ جمعاً محلى باللام تحلق على كافة الآيات الأنفسية والآفاقية: رسولية ورسالية، وهو الكفر المطلق المطبق، البعيد عنه الذين يكذّبون ببعض ويصدّقون ببعض، فلهم بعض الإيمان، فقد يأتي يوم هم يخرجون فيه من النار إلى الجنة قضية إيمان، بعد ما ذاقوا وبال أمرهم في تكذيب.

فهذه الآية تبين مصير المؤبدين في النار الذين ينخمدون - بعد ما ذاقوا وبال أمرهم - مع انخماد النار، فلا نار - إذاً - ولا أهل نار.

ثم ﴿الْجَمَلُ﴾ أمام ﴿سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ تناسب القلس الغليظ الذي يجريه الجمل، ولأنه حبال جمعت وجملت فأصبحت حبلاً واحداً يصلح لجرِّ الجمل، وأين جمل من جمل؟.

فهنا ﴿لَا تُفَتَّحُ﴾ تعم كلَّ تفتُّح لبركات السماء معنوياً ومادياً في النشآت الثلاث، كما تعم التفتح لصعود أعمالهم إليها يوم الدنيا، وصعود أرواحهم فيها بعد الموت، وصعود أنفسهم يوم القيامة الكبرى، حيث تفتح أبواب

(١) سورة الحجر، الآية: ١٤.
(٢) سورة الحج، الآية: ١٥.
(٣) نور الثقلين ٢: ٣٠ تفسير العياشي عن منصور بن يونس عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية نزلت في طلحة والزبير والجمل جملهم.

جنة الخلد عند سدرة المنتهى لأهليها، وكذلك نزول بركات من السماء مادية ومعنوية عليهم في هذه النشآت، فهذه الأبواب كلّها مغلقة على هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا﴾ كما أغلقوا على أنفسهم أبواب الهدى، جزاءً وفاقاً.

أجل تفتح لهؤلاء الأنكاد أبواب الزحمة بديلة عن أبواب الرحمة، حيث السماء تشملهما مادياً ومعنوياً، ولا تعني ﴿بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1] لأهل الرحمة في المادية منها ما تصل إلى غير الصالحين من رحماتها، فإنها تبدل عندهم بزحمات حيث يبدلون نعمة الله نعمة ونقمة، إضافة إلى رحمات خاصة أخرى مادية لهؤلاء دون أولاء.

ذلك، وأبواب السماء في صعود الأعمال والأدعية ونزول الفرقان والرحمة على أهليها، هذه هي أبواب سماء الرحمة الروحية، المتحللة عن العلو المادي، فـ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[2] لا تعني إلى مكان عالٍ إلّا جنة المأوى، أم إلى رضوان من الله الذي لا مكان له، كما ونزول الرحمة المعنوية يعني فيما يعنيه نزولاً روحياً دون مكان عال.

والأجمل هنا في ﴿ٱلْجَمَلُ﴾ الجمع بين جمل الجمل والجمل الذي يُجر به الجمل، فلو أمكن ولوج الجمل ابتداءً بحبله الجمل في سمِّ الخياط لأمكن دخول هؤلاء الجنة، ومما يُناسب ذلك الجمع أن الخيط الغليظ الذي يصعب ولوجه في سم الخياط يربط برقيق سهل الولوج فيلج به صعبه، وفي ولوج الجمل الإبل بجمله الفتل الغيظ استحالتان اثنتان، مما يجعل الممثل به تضاعف الاستحالة، وعلّ من الوجه في صيغة ﴿ٱلْجَمَلُ﴾ هنا دون الإبل، جمعها لجملي: الجمل وحبل الجمل، دون الإبل جمعاً بين الاستحالتين،

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.
(٢) سورة فاطر، الآية: ١٠.

فدونك قف أمام ذلك المشهد الرائع الشهيد، مشهد الجمل بحبله تجاه سم الخياط، فلو انفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير بجمله القطير، فقد تنفتح الجنة لأولئك المكذبين بآيات الله المستكبرين، ولكن:

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾:

هناك لهم ﴿مِهَادٌ﴾ مهدوها في الحياة الدنيا، حيث الآخرة بحذافيرها هي مثال الدنيا المخلّفة - بما وعد الله - هي عنها، فـ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ﴾ من تحتهم فراشاً ﴿مِهَادٌ﴾ أمهدة مفترشة ممهدة لهم بكلِّ ألوان العذاب التحتية، ثم ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ﴾ جمع الغاشية فهي أغشية مشتملة، وهي العذابات الساترة لهم، المحيطة بهم من جوانبهم كلّها، فيكون استظلالهم بحرِّها كاستقرارهم على جمرها، فـ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾[1].

فالغاشية هي التي تغشاهم مهاداً من تحتهم وسائر الغاشية من فوقهم: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]، وعلى حدِّ المروي عن الرسول ﷺ: عند تلاوته هذه الآية: «هي طبقات من فوقه وطبقات من تحته لا يُدرى ما فوقه أكثر أو ما تحته غير أنه ترفعه الطبقات السفلى وتضعه الطبقات العليا ويضيَّق فيما بينهما حتى يكون بمنزلة الزج في القدح» فقد جعل لهم من النار أمهدة مفترشة تحتهم وأغشية مشتملة عليهم، فيكون استظلالهم بحرِّها كاستقرارهم على جمرها أعاذنا الله منها، فتلك هي ضفّة التكذيب والاستكبار، ثم إلى ضفّة التصديق والإقرار:

(١) سورة الغاشية، الآيات: ١-٧.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥٥.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

هنا ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ تُحدِّد واجب الإيمان وعمل الصالحات دون إحراج ولا إعسار فيها، فـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ على درجاتهم بمساعيهم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ عطاء غير مجذوذ، دون واجب الاستغراق الظاهر من ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إزالة لليأس عن هؤلاء الذين لم يطبقوا كل الصالحات، فما لم يكن في الوسع من فعل المفروض أو ترك المرفوض فلا يطالب به المكلف، ثم وما قصر فيه وهو يسعه أن يطبقه فبوسعه أن يجبره فهو مطالب بجبره، اللّهم إلّا السيئات المكفرة بترك الكبائر، فـ ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ تبشير بواسع رحمة الله كضابطة ثم هناك مزيد فيما قصر من تكفير وتوبة وشفاعة أماهيه.

ذلك، ومتصوَّرات التكليف المستحيل والممكن والواجب كالتالية:

١ - التكليف بالمستحيل ذاتياً، ٢ - أو حالياً، ٣ - والتكليف المحرج نوعياً أم، ٤ - شخصياً، ٥ - والتكليف الشاق المعسر نوعياً أو، ٦ - شخصياً، ٧ - والتكليف الموسع شخصياً، ٨ - أو نوعياً.

فالأولان مستحيلان في محكمة العقل والعدل فضلاً عن التكليف الفضل، ثم المحرج بشقيه غير وارد في الشرع لمكان نفي الحرج بآياته كـ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1] وكذلك الشاق الذي يكلف كافة قوات المكلف بنوعيه، إلّا قليلاً لمكان نفي العسر بآياته كـ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[١] فيبقى الثامن وهو واسع التكليف الذي لا يكلف المكلف إلّا واسعاً في طاقته.

وكما أن واسع التكليف شرط في أصله لكافة المكلفين، كذلك هو في كلٍّ منهم، فإذا كانت الموانع لفعل المفروض أو الجواذب لفعل المرفوض، كانت أقوى من طاقة المكلف أم يُساويها، أم هي أقل منها بقليل لا يعبأ به، إذاً فهذا التكليف خارج عن وسع المكلف فلا يكلف به، اللّهم إلّا إذا عدم الوسع بسوء اختيار، وإذاً فليس التكليف الخارج عن وسعه إلّا بوسعه قضية سوء اختياره في ترك الوسع.

هذا، فقد يقدر التكليف بالطاقة الموسعة امام المكلف به وإلّا فلا تكليف إلّا فيما استُثني.

فالمفروض تركه أو فعله الذي هو بحاجة إلى عصمة ربانية خارج عن الفرض لمن دون المعصومين، كما حصل ليوسف عليه السلام في قصة امرأة العزيز، فـ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾[٢] - فلو لم يدركه عليه السلام برهان ربه وهو العصمة الربانية لهم بها على عصمته البشرية التي هي فوق العدالة العادية ودون العصمة الربانية، فإن وقع غير المعصوم في نفس المأزق الذي وقع فيه يوسف عليه السلام لكان في همِّه بها أم وفعله فيها معذوراً إذ لم يكن تركها في ذلك الظرف الحاسم العارم في وسع الطاقة غير المعصومة.

وهكذا الأمر في كلِّ طاقة قاصرة عن مكافأة أو مكافحة العصيان، إلَّا إذا كانت قاصرة عن تقصير، كالذي يسافر إلى بلدة يعلم اضطراره فيها إلى اقتراف محرم أو ترك واجب، حيث اضطراره المقصر - إذاً - غير عاذر،

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٤.